إبراهيم عبد الحميد



رواية

صدرت الطبعة الأولى فى فبراير 2020

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	ولادة عارضة
المؤلف	إبراهيم عبد الحميد
التصنيف	رواية
رقم الإيداع	7465 - 2020
الترقيم الدولي	978-977-6771-75-8
رقم الإصدارالداخلى	الطبعة الاولى فبراير 2020
عدد الصفحات	88 صفحة
تصميم الغلاف	إهداء م. مفتاح الخشمى



تأصيل لمدخل رواية (ولادة عارضة)

للكاتب إبراهيم عبدالحميد..

يكتبها الشاعر الناقد

سامي ناصف

لقد أصبحت الرواية الحديثة لا تهتم بالبداية التقليدية ؛فهي تدفع القاريء إلى الانغماس في التيار المتدفق للتجربة التي تُحللها والتي يمكن للقاريء،أن يألفها تدريجيا ،من خلال الاستنتاج والربط بين الأشياء أثناء القراءة وتكون نهاية الرواية غالبا مفتوحة ، أو غامضة ،وتترك القاريء في شك مما سيؤول إليه مصير الشخصيات ،أو تطرح له احتمالات لنهايات ،يختار من بينها ما يتصوره .

وهذا ما ستكشف عنه رواية (إبراهيم عبد الحميد)-ولادته عارضة - التي تدور في نسق اجتماعي معقد تشتم من رائحة الحدث للرواية عبق فن الرواية الخيالية ،التي يحاول الكاتب بأيدلوچية سلوكيات كتابته أن ينزلها إلى الواقع ويعد لها مسرحا ممنطقا عبر الزخم البشري وأخلاط الناس بين العمال ،وأصحاب العمل والأسرة ومعاونة جل أفرادها حتى الأطفال.

فالكاتب يجمع كل هذه الأخلاط في نسق واحد وخيط رفيع من الأحداث يربط بينهم وتلك مهارة چل كتاب الرواية المنصهرين في الحداثة الروائية .وذلك ما فعله (إبراهيم عبدالحميد)

العمق ودوره في الفن الروائي .

لقد اهتم الفن الروائي،بالشعور الداخلي والباطنية وغير الواعي للإنسان.

ولجأ إلى تصوير نشاط العقل الإنساني،وإلى تمثيل السياج الشعور الداخلي للشخصية ،بدلا من تصوير العالم الخارجي ؛ومن هنا تقلص حجم الأحداث عما كانت عليه في الفن الروائي التقليدي ،أو بدت غامضة أو تلاشت ،كي تفسح المجال للتحليل والتأمل والتحليق للكشف عن تعقيدات الشعور الإنساني ،وتصوير تيار الشعور داخل عقل الإنسان

ورواية (ولادة عارضة)- للكاتب /إبراهيم عبد الحميد .

تَعَمّقَ فيها لتحليل وسبور غور الشخصيات المتحركة عبر تيار الرواية من أولها إلى آخرها ،وحاول الكاتب تفجير طاقات الصراع بكل انواعه،الداخليه والخارجية ،لكل شخصية من شخصتها

حتي يصل بالصراع لحظة الذروة والصدام فتشتعل الأحداث وتتأزم التوجهات لتصبح الرواية (ولادة عارضة) مسرحا لذلكم الصراع .

...ولقد مهر الكاتب في وسم الرواية بعنوان متناغم مع مضمون الرواية .

وقد يحبس القاريء الفهم تجاه تصور ولاودة حقيقية لطفل ولكنها عارضة ،هنا يُظلم العنوان ،ويُظلم النص .

ويظل العنوان يسكن دائرة المباشرة اللفظية ،والتوجه الصريح ،لمدلول التركيبة .

ولكن عنوان الرواية حمّال أوجه ،من خلال بث الوهج المجازي ،إما مُرسلا أو مجازيا استعاريا ،فكل التأويلات محتملة لما يشي به العنوان .

ولادة طفل ،ولادة قرار ،ولادة حلم ،وغير ذلك .

فمن الروعة أن يتحكم الكاتب في رسم عنوان يصبح جاذبا ،دون اللجوء إلى فوضوية العناوين التي تُلقى جزافا ،بلا فهم أو روية .

...لغة الكاتب،تميل إلى لغة غزل البنات ،كما كان يصف ذلك عميد الأدب العربي/ طه حسين بعضا من كتاباته وكتابات من ينهجون نهجه ،فلغة الكاتب (إبراهيم عبد الحميد ..)تتميز بالسهولة والوضوح مع عمق التحليل المنطقي ،والفلسفي لأيدلوجية الحدث ،ودائما يُعذب الكاتب نفسه رغم أنه يتحدث بضمير الغائب دائما وكأنه يلقي باللوم والتبعية على نفسه وهو يسرد الأحداث ولم ينفصل عنها ،وكأنه يوزع الأدوار على شخوص جردها من نفسه ،فيتحكم فيها وكأنه قائد لمسرح العرائس ، ففي روايته يعيش لحظة التجريد .

والكاتب في چل روايتها ينهج نهج الحداثة في فن الرواية خارجا على أطر النظام التقليدي لهذا الفن .

وأترك لكم الحكم بعد المتابعة المتأنية .



ولادة عـارضـة

المقدمة

هذه رواية من نسج الخيال وان تقاربت الوقائع فيها بحياة البعض فهذه صدفة وحي الخيال..!!

المؤلف

لم يبحث .. (أب)..او ..(أم)..عن .. (ابن).. مفقود..تجاهل صوتي كل الناس..أصرخ محترقا..إلى من يسمع صوتي .. ولدت بلا(أب) بلا (أم) طرقت كل الأبواب..وكأني..جئت إلى الدنيا ..كي أتسول.. بعض من الحب.. بعض من الحنان..غامرت بكل مكان .. ليس لي (أهل).. ولا..(وطن)..ولا عنوان..ولا أدري..من أنا..؟!!

- ما اسمك؟

تتدخل الأخت لمواجهة عجرفة الشرطي

دعك منه وتحدث معي أنا أخته الكبرى وأرفض بشدة بأن يتم تسجيل أخي بسجل العائدين من المهجر

يرد الشرطي بغلظة اسمعي يا سيدتي إنها القوانين ولن تتغير القوانين بشأن ما تقولين بانه اخيك هيا أكملي الإجراء أو دعيني وشأني

من هنا بدأت مأساة الشعور بالغربة والاغتراب في حياتي ولأول مرة اشعر بالخوف ففكرت بالهرب والعودة الي الحي الذي اعرفه ويعرفني ولكن ماذا أفعل فأنا في وسط مكان صحرواي قافر،وكان طريق السفر الذي قطعناه طويلا بالرغم أنني كنت أرى منذ بداية الطريق بأن لون السماء ولون الحجارة يتشابه ، ولكن هذا المكان لم أشاهد مثله بحياتي ففكرت في الهروب ولكن الهروب يحتاج إلى وقت وأنا بمركز الشرطة أو مركز للجوازت لا أعرف فالصورة المتجسدة في داخلي انني سقطت في شراك الأمن وتذكرت كلمات(خالتي) او (أمي) هكذا كنت أناديها:

- أبوك مات وأنت طفل صغير وأمك ماتت حزنا على أبيك بعد وفاته بعدة اشهر

يرسخ في ذهني بأنني كنت السبب الأول والرئيسي في وفاتهما فولادتي هي التي قتلتهما أو كانت السبب بموتهما، إنها اللعنة التي تطاردني، لقد أعلن أبي وأمي. أمام الملأ براءتهما مني منذ ساعة ولادتي ،وأصبحت أنا وحدي الضحية، والحياة قدمت لي وصيتها، وهي أن أقبلت بكل شئ كما هو، وبدون مقاومة أو أسئلة، سيطرت علي فكرة الهروب والعودة إلي تلك الأمكنة التي عشت فيها وتسكعت بأزقتها وحواريها وأعرف شوارعها ، وكل شبر فيها ، هذا أنا أزاول مهنة الإنتظار منذ ولادتي وها أنا أحاول الإندماج مع من قالوا بأنهم أهلي وعائلتي بعد مرور ستة عشر عاما من الإغتراب ،فأنا غريب عنهم ، وهم لايعرفون عني شيئا

واستفقت على صرخات أختي

- أريد المسئول أخي لن يسجل في كتيب العائلة من (العائدين)

في تلك اللحظة كان صوت عقلي الباطني يحدثني وأنا أنظر إلي أمتعتي القليلة التافهة المبعثرة في غرفة الأمن:

- من انا؟

كنا نسكن بشقة مكونة من غرفة وصالة بإحدى الأزقة الضيقة كنا ثمانية مع أمي نتكدس في تلك الغرفة كتكدس السمك بعلبة (السردين) وكنا نتشاجر بكل صباح خاصة على(دورة المياة) والتي لم تكن تتحمل كل هذا الإزدحام ننصت إلى صرخات الباعة من الشارع وكأنهم معنا بالشقة فالحواري الضيقة مساكنها متلاصقة ، تفوح منها روائح الطعام والعرق ولكن كنا نمتاز برغم كل هذا الإزدحام بأن كل منا يعرف الآخر فسكان الحارة رجالا ونساء وأطفالا يعرفون بعضهم البعض جيدا ، بل يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن بعضهم البعض، وكانت أمي التي تربيت بحضنها تقول لنا:

- من لايعمل لايساوي قشرة بصلة ولكي تصبحوا رجالا عليكم بالعمل،

لم تكن أمي تؤمن بالتعليم ولم تعترف بأن للكتاب أية فائدة، وعندما كنت أحصل على بقايا قصاصات لمجلة مصورة، كانت تقول لي:

- ماذا ستفعل بها ، الورق لايصلح إلا لتنظيف الزجاج..!!

ولم يكن بمقدوري أن أنطق بأية كلمة وإلا فإن أصابع يدها الخمسة ستترك على وجهي علامة لاتزول إلا بعد أيام ،ومن ضمن تعليمات أمي ايضا:

- من يضربك أضربه ، ومن يصفعك اصفعه ، حتى وإن كان أخوك ، ولا تقف جامدا مثل الحائط

ورغم كل ذلك دخلنا أنا وإخوتي إلى المدرسة، تتزاحم في داخلي صور الذكريات وتصغر الدنيا في رأسي ، وأستغرب كيف لذاكرة طفل صغير تنبش كل ذلك الماضي وستحضره بل وتلملم كل تفاصيله وكان السؤال الذي أرهقني بطفولتي وخلف لي بعضا من الحيرة هو مناداتي لزوج أمي (بعمي) وإخوتي ينادونه (أبي) يتجمد السؤال وتستمر الحياة بحرارتها ونمضي نحن نلهو ونمرح بشقاوة وشغف الأطفال للحياة، وصرت لا أجد فرقا في مناداتي لزوج أمي بعمي لحبه وحنانه لي فقد كان يعاملنا جميعا معاملة الأب لأبنائه بصدقه وعفويته وطيبة قلبه وعندما بلغت الثامنة من عمري كان لابد من أن نعمل ولأن عمى كان يعمل بالمقاولات فكان أول عمل أمارسه بحياتي أنا وأخي في مجال عمل عمي وبدأت مسيرة حياتي المعتمة ،فقد أبلغنا عمي بأن أول يوم عمل سيكون صباح الغد وسوف تحضر سيارة لنقلنا إلى موقع العمل في تمام الساعة السابعة، ولإننا أردنا أن نثبت لأمي بأننا أصبحنا رجالا وبأننا على قدر تحمل المسؤلية نهضنا قبل الموعد المحدد بساعتين وصرنا نحن من ينتظر سيارة النقل التي ستقلنا إلى موقع العمل ولإن موعد حضورنا كان مبكرا

فاقترح على أخي الذي يكبرني بعامين أن نجلس بالمقهى القريب من مكان تجمع العمال والذي حدده لنا عمي وكانت هذه أول مرة في حياتي أجلس بها في المقهى وقد فاجأني تصرف أخي بأن صفق بيديه مناديا صاحب المقهى وطلب منه كوبين من الشاي بالحليب، أدهشني كل ماحدث، واحتسيت كوب الشاي بلذة وكأنني أشربه لأول مرة ، وبجرعة واحدة أفرغت كل محتويات الكوب في جوفي ،ثم سمعنا صوت بوق السيارة الناقلة وصرخ بنا السائق:

- هيا ياكسالى فالطريق للموقع طويل ولابد من وصولكم بالموعد المحدد للعمال

المكان موحش وسط الصحراء وموقع العمل يزدحم بمعدات البناء وأسياخ الحديد التي تستعمل في بناء الخرسانات المسلحة وجاءنا مشرف العمال وطلب منا نقل هذه الأسياخ الحديدية من مكانها إلي مكان بناء الخرسانات المسلحة وبدأنا حمل الأسياخ الحديدية على ظهورنا وفي أول حملي للأسياخ كدت أن أسقط فساندني أخي واستمر عملنا وكانت الأسياخ الحديدية ندبها تتغلغل في لحمي الطفولي الطري ولكن في تلك اللحظة كنت أقول لنفسي:

- الطفل ماعاد طفلا ولكنه الآن(حمال) وهذه هى البداية ولايعني بأنه ستكون النهاية واستفقت على صوت مراقب أو مشرف العمل وهو يصرخ فينا:
- بالتعود ستموت جلودكم ولن تشعروا بحرقة الندوب فكونوا رجالا ، فاليوم ستولدون من جديد

فشعرت بأن حياتي تحولت إلي شظايا فجلد ظهري كله بدأ يتمزق ، ولكن من يعبأ بالطير المذبوح إن كان يرقص ألما ، أم أنه يرقص طربا ، وعدنا عند غروب الشمس إلى منزلنا أنا وأخي نتدحرج تعبا يغطينا سواد أسياخ حديد البناء المسلح

وكان أول يوم لي بالعمل يوما ضائعا في غياب أيام عمري كلها ، بالرغم أن هذا اليوم استمر لأيام إلا أنني اعتبرها جميعها في المجمل هي يوم انتحاري بعمل حمال لأسياخ الحديد الأسود الذي لون بحمرة صداءه جسدي النحيل الضعيف وحولني كي يكون لي القدرة على الصبر والمقدرة على الإنتظار

كنت مابين النوم واليقظة وفجأة سمعت جارتنا تهمس لامي:

- كل ماتفعلينه من أجله سيكون بميزان حسناتك، فهو يتيم

استغربت من امي بأنها هزت رأسها بالإيجاب، ولكني لم أكن أعلم حينذاك من كانت تقصد جارتنا بالطفل اليتيم ولم أعلم بأنني أنا هو ذلك اليتيم؟ الذي كانت تقصده

إلي أين ستأخذني الحياة فبعد عملي حمالا بدأت مع أخي الأكبر في عمل السباكة، وكنت أعمل معه لإنه كان يهوى عمل السباكة ، وفي تلك الظروف كان من الصعب أن أعترض ومن المستحيل أن أرفض ، كنت أنفذ كل ما يفرض عليّ ، حتى الدراسة والذهاب إلى المدرسة كان أمرا يفرض علي ويجب علي تنفيذه دون مناقشة **!!**

أخي الأكبر كان يقاسمني كل شئ، يقاسمني الحكايات واللعب والمرح والمدرسة والعمل وكان يقاسمني أيضا الذهاب إلي المقاهي التي اعتدت ارتيادها وكنت أقاسمه بكل شئ إلا (تدخين التبغ) الذي بدأ يتعلم ممارسته وكان يقول لي:

- لكي تصبح رجلا ويحترمك الجميع عليك ان تدخن التبغ

ولكنني كنت أرفض بشدة ممارسة هذا الشئ والذي كنت أعتبره مكروها محرما وعيبا مابعده عيب

ثلاثة صفات نَمَتْ في داخلي كونت أساسيات شخصيتي ، الصبر والقدرة على تحمل قلق وتوتر الإنتظار والمقدرة على تلقي الأوامر دون اعتراض ، مهام عسيرة نقشت في صحوة ذاكرتي الطفولية لكي تنطلق إلى مراكز الوعي بعقلي وتستقر به متمددة إلى الآن، ومازالت أحلام الطفولة تراودني بين الحين والآخر فأنا عندما شاهدت الحاوي أو(القراقوز) لأول مرة تمنيت بأن أكون حاويا ، وعندما امتطيت صهوة الحصان الخشبي لأول مرة تمنيت بأن أكون فارسا وعندما كنا نذهب للبحر برفقة جارتنا العجوز الطيبة والتي لم تكن تنجب ، وكانت تعيش وحيدة بالطابق الثالث بالمسكن - أو العمارة كما كانت أمي تحب أن تطلق عليها - ومع جارتنا الأخرى برفقة أولادها، هكذا كانت رحلاتنا إلى البحر المقابل للشارع الذي تتفرع منه حارة الزقاق التي كنا نقيم بها، حيث كان ابن جارتنا لا يحب البحر ولكنه كان ماهرا في صنع الطائرات الورقية فكان طوال الوقت الذي نقضية بالبحر كل همه كان صناعة طائرة ورقية ومحاولة بأن تطير لكي تلامس السحب وكنا جميعا نشاهدها وهي ترتفع شاهقة ونحن نسبح ويتحدى كل منا الآخر في السباحة إلي أعمق نقطة بأعماق البحر كنت وأنا في أعماق البحر أتمنى أيضا بأن أكون بحارا ، وعندما كان الأطفال يتجمعون كنت أتوسطهم ، أنا من كان يقترح نوع الألعاب التي يلعبونها وكنت أيضا أتمنى بأن أكون مشرفا على الألعاب ، وحتى القصور الرملية التي كنت أبنيها وأهدها على شاطئ البحر كنت أتمنى بأن أكون مهندسا وأتمنى أن يكون لي قصرا مثل تلك القصور والتي كنت أبدع في صناعتها برغم يقيني بأن مع أول موجة بحر قادمة ستهدم قصري الذي تمنيت أن أسكنه ذات يوم من أيام عمري

برغم أنني لم أعرف المسرح في طفولتي إلا أن حياتي كانت على ركح الحياة كمسرحية كسرت جدران الحاجز الرابع للمسرح واندمجت خشبته وصالته إلى أبعد من ردهات المسرح ، إلى الشارع ، الحارة ، البيوت المتلاصقة كمرآة تعكس الحياة بكل منزل ، بكل وضوح ، فلم تكن الحياة بحارتنا بها خصوصية ، فكل منا كان يعرف عن الآخر أدق تفاصيل و ملامح كل حياته

فعندما استقر بي المقام للعمل بورشة منجد كعامل تنجيد لصناعة المفروشات ، وحشو الوسائد ، وصناعة الكراسي والصالونات ، راقت لي وأجدت المهنة وتعلمت اتقانها فقد كان الأجر يتزايد في كل مرة ووفقا لقدرتي ، ومقدرتي على اتقان المهنة، مع الإستمرار بدراستي الإعدادية والتي كان يلفت نظري إحدى البائعات للتدواي بالأعشاب حيث أنني حفظت عن ظهر قلب طريقة ترويجها الإعلاني لبضاعتها وكنت كثيرا ما أردده بيني وبين نفسي بكل الأوقات وكنت أقلد بإتقان طريقتها واقوالها :

محمد نبى ، عيسى نبى ، واللى له نبى يصلى عليه

البرد يا محترم ، يتملك الانسان من ظوافر رجليه

اذا وصل الفخد ، يعمل نشر وخبلان

اذا وصل الى سلسلة الظهر، اكن اربع مسامير حدادى ادقولك بظهرك

والعمل: انا عندى قزازه فيها ثلاث انواع زيت كبد الحوت وزيت دهن البرغوث وزيت غيم العفريت

والثلاثه مغليين ، تحط لحسه على اى حته توجعك تقوم وتجرى زى الحصان

إذا اقولك إيه ثانى يا محترم

إذا فتحت النمليه لقيت حلاوة طحينية ، سنك وجعك ، سنك طل عليك وعاوز تاكسى يشيلك للدكتور، والدكتور يخلعلك التاكس ، والتاكس يخلعلك الدكتور ، على ايه خُد واحدة منى وحط لحسه وانت تبقى زى الحصان

هكذا كانت تتدفق نداءات الباعة والتي ترسخت في ذهني مثلما ترسخ في ذهني المكان بكل تفاصيله وتاريخه وكل أخباره وحكاياته لدرجة كنت اعرف من تزوج ومن تشاجر ومن مات حيث التسكع والتجول بتلك الأمكنة كانت متعتي وكنت منبهرا لدرجة الشغف بلعبة الخنجر والهدف هذه اللعبة التي تقف فيها الفتاة وظهرها الى الحائط، يأخذ رامي الخنجر، في تصويب خناجره الى الحائط الخشبي وراءها، بجوارها، يمسك بطرف الخنجر جاعلا رأسه الى أسفل، يديره الى اعلى جهة صدره، ثم يقذفه، يرتشق فوق رأسها، قد يقطع شعرة شاردة من رأسها، ثم تتوالى الخناجر من يده حتى برأسها وكتفيها وذراعيها، تغادر الفتاة مكانها، وتبقى الخناجر بالجدار وتصفق الايدي للرامي الماهر ولهذه اللعبة حكاية معي فقد جربت او حاولت ممارستها مع اختي واحضرت قطعة خشبية ووضعت اختي امامها وسرقت بعض من سكاكين المطبخ وعندما حاولت البدء صرخت اختي مذعورة بمجرد ان رأت السكاكين بيدي مما جعل امي تخرج مسرعة وما ان رأت المشهد حتى انهالت علي ضربا بالايدي والارجل واللكمات وتم حرماني من الاكل ومن الخروج ومن اللعب مع أقراني بالحارة ولمدة ثلاثة ايام وكانت هذه اول واخر مرة احاول تجربة ممارسة هذه اللعبة الخطرة فالحرمان عقوبة، وعدت مرة اخرى لكي اجلس مع اخوتي واخواتي حول السفرة الارضية وعليها الخبز الساخن والبيض والفول وتعد تجربتي هذه اول اكتشافات تجربة الالعاب الخطرة وعدت الى واقعي اليومي وممارسة مهنة المنجد وفي ايام الاحد وهو يوم عطلة الصناع والمصارف والحرفيين كنت اتجول بين المتاجر وخاصة التي لم تكن مألوفة في الحارة التي كنا نقطن باحدى أزقتها تلك المتاجر الضخمة، ذات الأطباق العديدة والتي بدأت تنتشر بوسط المدينة حيث كان المصعد يصل بين أدوارها المختلفة، حيث كنت أجد متعة في ركوب المصعد تشبه ما كنت احس به من متعة ركوب الارجيح والتي عرفتها في السنوات العشر الاولى من حياتي وكنا انا واخي بعد ذلك نذهب للمقابر حيث يوم توزيع ارغفة من الخبز المحشو باللحم كصدقة على روح المتوفي (رحمة ونور)

وكنا نحصل على اكبر قدر من تلك الصدقات وكنا نبيعها بعد ذلك لنشتري بثمنها تذاكر للدخول الى دور العرض ومشاهدة افلام(اسماعيل ياسين، وطرزان) وبعضا من الروايات التي كان الباعة يعرضونها على الارصفة بالقرب من الحي الذي نسكن به اما باقي ايام الاسبوع فقد كنت صباحا اندس وسط الاجسام المزدحمة في القطار واذهب الي المدرسة الاعدادية التي كانت تبعد عن منزلنا بالعديد من الكيلو مترات والتي كنت اعجز عن قطعها سيرا على الاقدام وبعد عودتي من المدرسة كنت مباشرة اذهب الى عملي فقد اصبحت منجدا يتقن بكل مهارة صنعته فالفقر لا يرحم وانا لا استسلم لليأس ولابد من أن احيا مهما تكبدت من معاناة ولن اتقوقع على ذاتي بل كنت متفائلا ومتفاعلا مع حياتي برغم الحرمان من كل لذائذ الحياة

وفي يوم شتوي ممطر كانت قطرات المطر تصطدم بعضها ببعض فتعطي نغما مختلفا اما الرعد فكان يضئ الليل وكنا نتكوم كلنا مثل كتل اللحم التى تبحث عن الدفء، وعندما أذن الفجر سمعت صوت طرقات عنيفة على باب المنزل فقالت أمى :

- الوقت مبكرا

ولكن قلق شديد جعل عمي ينهض مسرعا نحو الباب وصاح:

- من بالباب رويدك قليلا ايها الطارق

ورد صوت قاسي النبرات:

- افتح

فتح عمي الباب فدخل ثلاث او اربع رجال، قال احدهم :

- نريد ..

سمعت الرجل يردد اسمي

قالت امي مذعورة فزعة:

- ماذا فعل ؟ ماذا تريدون منه؟

- لاتخافي .. سنسأله بضعة اسئلة ثم يعود للمنزل

دخلت امي الى الغرفة وقالت لي:

- إرتد ملابسك، لاتخف سوف اذهب معك

وبمجرد دخولي الى الصالة التصق بي اثنان على الفور وأمسك احدهم بكتفي

قالت امي :

- الي اين ستأخذونه ؟! سوف اذهب معه

نظر الرجل الى امي نظرة قاسية وقال:

- قلت لك لاتخافي بضعة اسئلة ثم يعود للمنزل

وكان صوت الرعد قد توقف كذلك كف المطر عن الهطول وانا بين الرجلين ارتجف من الخوف اكثر من ارتجافي من البرد

وجدت نفسي داخل زنزانة كالحة الجدران وسط شباب يتكلمون بلكنة لم اعتد سماعها بل كانت غريبة على اذني

قال احدهم:

- هل معك علبة سجائر ؟!
- لا انا لا ادخن
- ولاسيجارة واحدة ؟!
- لا
- هل سرقت شيئا ؟!
- لست بسارق

- أكنت بالمظاهرات ؟!

- لا أحب السياسة ولم اشارك بأى مظاهرات

- ماالذي جاء بك اذن ؟!

- رجال قساة

ضحك الجميع من إجابتي، وسمعت أحدهم يهمس لصديقه:

- انه جاسوس مندس بيننا

فصرخت فيهم يائسا:

- لست بسارق ولست ... ماذا قلت؟ !!

- جاسوس

- ولست كما قلت

وبعد ثلاثة ايام، كان عمي بانتظاري، كان الوقت وقت الغروب، في وجهه صمت عابس مقبض، ونظرته مصوبة الي بحب ممزوجا بالقلق وابتسم لى :

- حمدا لله على السلامة، الان قد تم الافراج عنك

وانا متوتر ومنفعل سألت عمي:

- ماذا حدث؟ ولماذا انا؟ اقصد لماذا سجنت؟ وماعلاقتي بالمظاهرات؟ ومن هولاء الذين كنت معهم؟ وهل انا ماذا ؟ تذكرت جاسوسا

قال عمي بكل هدوء :

- لا يا بني لست بجاسوس ولكن كن على حذر فنحن لانعرف ماذا يخبىء لك الغد

- يخبىء لي قدري

وفجأة .. خرجت من باب السجن او مقر الشرطة لم اكن افرق بينهما مسرعا ورحت اعدو نحو المنزل وعيناي مليئتان بالدموع وسؤال واحد يلح علي واريد اجابته من امي

- من انا؟

تشابكت وتداخلت كل تفاصيل حياتي وكلما زادت سنوات عمري تكون الحياة اكثر تعقيدا برغم انني بسيط جدا واعيش بين اولئك البسطاء اهلي وجيراني وكل اصدقائي واقراني، ولم اندم في حياتي مرة واحدة على اي شئ وكم تمنيت في مرات عدة بان امتلك القدرة على التقاط الجزئيات البسيطة المبعثرة في حياتي واكون كاتبا او روائيا واغزل من عناصر حياتي عملا او كتابا يكون بلا زيف او اي افتعال ولكن كانت دائما تخذلني الكلمات والعبارات واقول لنفسي: حياتك ملكك وحدك ولا تعني احدا غيرك ، ثم ماهو المهم بحياتك لتكون ملحمة ؟! ما أنت إلا واحدا من ملايين البشر الذين يعيشون على الهامش وحياتهم لا تشكل قضية، ما انت الا انسان مرهف الإحساس رقيق المشاعر ومثلك لست تاريخيا ولا مجدا و معجزة فزمن البطولات والامجاد والمعجزات راح زمانها وولى، اندمج في الحياة وكن بسيط كما انت ولا تعقد الامور وتعقد حياتك لكي تصبح قضية ،وربما هذا ما جعل فكرة الكتابة تغادرني في تلك السنين من عمري الغض، وانشغل تفكيري بدراستي وعملي وابتعدت عن تجربتي الخاصة ومعاناتي وبحثي المستمر لمعرفة من اكون؟ ومن انا؟ وقد هزت حياتي الدراسية عدة هزات ولكن هذه الهزة زلزلت كياني كله فقد كنت بالمرحلة النهائية للمرحلة الاعدادية وقبيل الامتحانات تم استدعائي من قبل مدير ادارة المدرسة وقال لي:

- خذ هذا ملفك الدراسي ولن تدخل الامتحان النهائي الا بعد تسوية وضعك

ثم سلمني ملفي الشخصي وبه كل شهادات المراحل التعليمية

- اذهب الي اهلك فسوف يشرحون لك الوضع

خرجت من المدرسة امام كل الطلاب منكس الرأس وشعرت بانني مهزوم مذموم وغدوت اركض في سرعة جنونية غير عابئ بما حولي ومن حولي

لم اعرف طعم النوم، فقدت طعم كل الاشياء، كرهت الحارة، وسكان الحارة، كرهت حتى التسكع في الاسواق، ماعاد شيئ يعجبني، قلبي منقبض، وانا الذي لا احب الحزن يوما، نظرت من شباك المنزل المطل على محل المنجد، ارهقني السير بالغرفة جيئا وذهابا، هززت راسي وقررت:

انه العمل، نعم العمل هو الحل وهو المخرج من هذه الازمة الخانقة، فالمدرسة قد انتهت تماما بالنسبة الي ولن اعود مرة اخرى الى مكان طردت منه ،وسوف اتجاهل الامر تماما

دخلت امي الى الغرفة

- تتجاهل ماذا ؟!

- لا شئ

قالت دون ان تغير لهجتها:

- تتجاهل ماذا بني؟ لا تراوغني فقد سمعت كل كلمة، فأنت صوتك عال بطبعك، صوتك عندما تتحدث كانه صراخ، فانت لديك صوت اعلى من صوت الترام

ابتسمت، فسحبتني الى حضنها، امي صوتي عالي لانني معظم وقتي اقضيه مع الآلات بالمصنع

همست في اذني:

- انت تعمل منجدا، ولست عاملا بمصنع، وليكن صوتك عاليا، لايهم بني، فأنت مؤدب بطبعك، والآن خذ استراحة من قلقك، ودعنا نتفاهم،

- لقد طردت من المدرسة، وهذا ملفي

-

- سوف يعالج عمك الامر برمته فلا تقلق، اذهب الان الى عملك،

وهمست في اذني:

- يوم أو يومان، وتعود الى مدرستك، لا تقلق

حركة الناس بالحارة، وازدحام عربات (الكارو) واصوات النساء ،وهدير البحر الذي يعانق الشارع الكبير، ونداءات الباعة المتجولون، ورجل المرور بنهاية الشارع، الذي يصدر اوامره بالحركة فتتحرك كل السيارات، وبحركة اخرى من يده تتوقف الحركة، تمنيت في تلك اللحظة بان اكون رجل مرور وعندما يمر ناظر المدرسة بسيارته، بحركة من يدي أأمره بأن يتوقف، وسوف اطلب منه اوراقه، كما فعل معي، ولن اتركه يتحرك، حتى يأتي ولي امره ويضمنه عندي، ابتسمت للفكرة ،وافقت على صوت صاحب محل التنجيد وهو يصرخ:

- ايها الكسول.. ايها الكسول، عد الى عملك، ولا تسرح مرة اخرى وانت تعمل

فتحت باب الغرفة فسمعت امي تقول:

- هل رفضوا، وانسكبت الدموع من عينيها

فرد عمي:

- انت تتكلمين لمجرد الكلام، انا لم اقل لك رفضوا، بل:

وقاطعته امي:

- ماذا؟ اكمل بربك

لقد انهيت كل الاوراق، والباقي (ختم النسر) فقط

فقالت امي:

لولا تعلقه بالمدرسة والدراسة لقلت فليتركها مادام يعرف القراءة والكتابة والحساب، فالباقي مضيعة للوقت

احتج عمي بقوة:

- اريد ان اراه مهندسا لامعا، اريده ان يكمل دراسته، وهذا قرار لا رجعة فيه، ومن حقي ان افرض رأي، فلا تعترضي على قراري

لاحظت امي وجودي فقالت:

- انتبه انه يسمعنا

- اطمئني فهو وان يسمعنا، فانه لن يفقه شيئا

- انك مخطئ، ياله من مسكين، انه يفهم اكثر مما نظن

لقد نفذ صبري معك، لقد قلت لك سوف انهي موضوع ختم(النسر)غدا باذن الله، فرجال الحارة كلهم قد شهدوا على الوثيقة وسيعود ابنك الى المدرسة

ايقظت كلمات عمي الرغبة عندي للعودة الى المدرسة ومواصلة الدراسة من جديد

ذهبت في اليوم الثاني في الصباح الى المدرسة بصحبة عمي، وخيل الى بان الدنيا اصبحت ربيعا بفصل الشتاء،فقد كانت المدرسة ترتفع بمعزل عن الشارع فيدخلها الاولاد من الباب الرئيسي، وعلى يمين الممر المؤدي الى باحة المدرسة كان مكتب مدير المدرسة، فقال لي عمي:

- انتظر قليلا بني فسوف اقابل مدير المدرسة، واعود اليك

لحظات مرت كأنها ساعات ،ثم طلب مني عمي الدخول الي مدير المدرسة، ورأيته مبتسما، فتذكرت على الفور حكاية رجل المرور وايقافه وطلبي له باحضار ولي امره، فقاطعني من حلم ذاكرتي مدير المدرسة قائلا:

- اذهب الى فصلك لقد تمت اعادتك الى الدراسة،واريدك ان تستذكر كل الدروس التي غبت فيها عن المدرسة

فقلت له:

- اطمئن انا دائما الاول في جميع المواد انا الاول وسوف انجح بالشهادة الاعدادية وانتقل الى الصف الاول والثاني والثالث وسوف اتفوق واكون مهندسا لكي احقق رغبة عمي

ربت عمي على كتفي وقال لي:

- تمام يا باشمهندس

على شاطئ البحر اجلس وحدي ابوح له بكل اسراري اناجيه ويناجيني ويقيني يؤكد لي بان البحر الذي يحيط بكل الامكنة على سطح الكرة الارضية ثابتا لا يتغير فالامكنة تتغير، تشيخ وتهرم ويعاد بنائها وولادتها من جديد ويظل البحر ثابتا لا يشيخ متجدد دائما، ورذاذ امواجه المتلاطمة تغسل كل احزاني فانا الان بلا عمل وطردت للمرة الثانية من المدرسة وارهقتني تلك الاستدعاءات، ودخولي المتكرر للزنازين والافراج عني بعد ايام وتكرار لفظة (جاسوس) مرهق انا، فقد تداخلت في عقلي كل الحكايات وعمت الفوضى كل ارجاء حياتي، ومن تكون تلك المرأة التي جاءت تسأل عني وما علاقتي بها؟ وما علاقتها بي؟ ولماذا حطمت مجداف زورق حياتي؟ وان تكن عمتي فهي اخت عمي، وعمي انسان طيب لم يسئ الى يوما فلماذا عمتي اساءت الي؟ اسئلة متزحمة متداخلة براسي، وهاهو عام قد مر من حياتي بلا عمل ولا دراسة وعاد نفس السؤال يكرر ذاته في اعمق اعماق نفسي:

- من اكون؟ ومن انا؟

حركة غريبة تحدث داخل الشقة اخوتي واخواتي يتهامسون وبمجرد مروري عليهم يصمت الكل، غياب امي وعمي عن المنزل تكرر على غير عادته، صرت اسمع اسمي يتكرر كثيرا داخل الشقة وعلى مائدة سفرة الاكل، الكل يتحدث في غموض كغموض حياتي والكل يصمت، وانا في حالة ذهول مما يحدث، وشعوري بانه يتم تغيبي عن قصد، ولكن ماذا يهم فقد فقدت كل شئ.. عملي ..دراستي، اصبحت حملا ثقيلا على اسرتي وفي ذات صباح جاءت الى امي وقالت:

- لقد اخفيت عنك سرا أو اني قد احتفظت به لنفسي والان ان الاوان لكي تفهم

فسألتها بخنوع:

- ماذا أفهم يا أمي؟

- سوف أصارحك بالحقيقة

اي حقيقة ،لا داعي للشرح، فانا اعلم باني اصبحت حملا ثقيلا على كاهلكم وبانكم ماعدتم قادرون على تحمل مسؤوجلية نفاقاتي، لا تقلي امي سوف اجد عملا فانا اجيد مهنة التنجيد

صمتت امي للحظات وقالت:

- ابني .. والدك يريد أن يراك

- ماذا؟ والدي ؟! ..يراني

- نعم والدك حي ويريد أن يراك

- أمي أنا أكره الأفلام السينمائية المملة والتي تتحدث عن الأب والإبن المفقود

- ما أقوله لك هو الحقيقة، والدك حي وموجود ويريدك، والتي جاءت الى المدرسة هي زوجة شقيقك واخبرتهم حقيقة امرك ولذلك فصلت من المدرسة

- أمي أنا لست (حسين) بفيلم الخطايا

- تأدب، انت ابن شرعي، ووالدك حي يرزق، لم نجدك على باب المنزل ولم يأت بك امام المسجد بعد ان وجدك امام المسجد انت ابن اختي وقد تزوجها والدك على سنة الله ورسوله ثم طلاقها وهي حامل بك، وبعد ان انجبتك تزوجت وغادرت مع زوجها خارج الوطن وانا توليت مسئولية تربيتك

- امي عدنا للافلام مرة اخرى ولكن هذه المرة فيلم هندي طويل سمج

- ابني لابد من ان تصدق والدك يريد مقابلتك اليوم وسوف تذهب معي انا وعمك لمقابلته

- أمي أعلم بأنك

لم اكمل عبارتي فقد كنت اتعلق بآخر رمق من كبرياء نسبي وساد صمت رهيب كل حياتي ، تصاعدت ذراته ممزوجة بدوي ضجيج داخلي وتحولت كل العيون الى آبار سحيقة من الاسرار كلما تمعنت فيها اصاب بالدوار والخوف تحركه اياد خرافية وفقدت كل الامان بعدما افضت الي امي بسرها الذي حولني الي خيط من دخان هلامي بلا شكل ولا ملامح وتبعثرت في ذهني كل الكلمات ،وغدا موعد اللقاء مع والدي الذي لا اعرفه ولم اقابله منذ ست عشرة عاما تطايرت كل ايامها منذ ان عرفت بسرها وبانني لا انتمي للمكان الذي ولدت وترعرعت به، كم اتوجس خيفة من ذلك اللقاء فهل من الخوف يولد الامان؟

كان الوقت عصرا والسماء ملبدة بالسحب والازدحام بالحافلة خانقا وكنت التقط انفاسي بين الركاب مجهدا صابرا قلقا انتظر ساعة اللقاء بوالدي مستسلما لقدري، واقتربنا من (وسط البلد) حيث العمارات الشاهقة ودخلنا الى احدى العمارات الشاهقة، فتحت لنا الباب امرأة متوسطة العمر رحبت بنا ونظرت الى وسرعان ما احتضنتني وارتدت الى داخل شقة مقاعدها وثيرة متناثرة، وكانت كل انظار الحاضرين تنظر الي كما الابتسامات تتبعني واقترب مني رجل فى خريف العمر يضوع منه عطر مستطاب باسطا ذراعيه بتودد ملامحه وسمرته تشبهني الى حد كبير ،اقتربت منه، وارتميت بحضنه،

- هو ابني ،تعال الى احضاني ،

استدرت وحاولت ان اهرب، جذبتني امي، فتملصت من قبضتها وارتميت على الكرسي واجهشت في البكاء، اقتربت مني امي تحيطيني بذراعيها، دفعتها برفق

- أمي دعيني الآن

سمعتها وهي تقول:

- ما الذي أبكاك بني، انه والدك، وهل يعقل أن يهرب الإبن من والده

ثم تركتني ودخلت في نقاش مع والدي الذي كان يؤكد لها بانه اتم كل الاجراءات والسفر سيكون في صباح الغد ،ثم قدم لها شنطة سوداء وقال:

- المبلغ كامل وكما طلبتي (ستة عشرة) ألف بالكمال والتمام

أخذت أمي الشنطة السوداء بدون تردد

وقالت:

- تصحبكم السلامة

صرخت :

- لقد كانت صفقة وأنا السلعة التي قبضت امي ثمنها ، أيعقل بأن أمي باعتني لأبي (بستة عشرة ألف جنيه)

استقيظت من نومي، ونهضت في كسل، سويت فراش غرفتي وفتحت النافذة على ضوء النهار، ارتفقت حافة النافذة وتأملت السماء واسطح الدور ونوافذ الفيلات المجاورة، ابتعدت من النافذة وغادرت الغرفة، فانا الان بمنزل والدي لدي غرفة منفصلة غرفة لي وحدي، هبطت الدرج على صوت(الحاجة) زوجة ابي والتى اعتبرتني دخيلا اقتحم حياتها وحياة أولادها فجأة وأشارت ألي أمرت: افتح الباب ..والدك قادم ، منذ تلك اللحظة أدركت بأنني ، غريب بين أهلي وباني غريب حتى في وطني وكنت قد تعرضت للعديد من المواقف الساخرة أولها بسب لكنه لهجتي وثانيها كان السبب لعدم درايتي وفهمي لمعاني عديد المفردات، فقررت ان اثبت للجميع بانني قادر على اثبات هويتي وانتمائي لوطني، فرحت أسأل بخبث وذكاء عن اقصر الطرق لكي اقنع الجميع بانني انا سأكون انا وخاصة بعد منع اخوتي من ابي اعطائي اي مستند يثبت صحة نسبي لأهلي،

فقررت خوض مغامرة السفر سيرا على الأقدام لأكثر من ألف كيلو متر والإنتساب إلى البحرية ومن انطلقت في اول رحلة لاثبات هوية نسبي ، وعند الفجر تسللت بدون أن يشعر احد وبدأت اولى خطواتي الى مدينة لا اعرف عنها شيئا بلا أوراق ثبوتية وبلا زاد ولا مال غادرت منزل اهلي بحثا عن ذاتي ،نظرت الى السماء فرأيت جماعات من اسراب العصافير تحلق مرفرفة في تشكيلات وداع ،جففت دمعة سقطت من عيني ورفعت رأسي الى السماء وقالت:

- ربي انت أعلم بي مني فساعدني حتى اثبت لكل الدنيا من أنا؟

ممزق الوجدان يعتريني القلق اخوض مغامرة عقلية دامية راغبا في ان اخرج منها مقتنعا بنصري، مبررا لنفسي بانني على حق فانا عشت معارك دمار كاملة ولم تهزمني ومن خلال هذا الطريق سيبدأ انتصاري ولن يتسرب الفشل الى نفسي وان فشلت فيكفيني شرفا بانني حاولت واستنفذت كل اسلحتي لمقاومة انتصارات الهزيمة

لكل شئ نهاية ..هذه هي سنة الحياة ..للفرح نهاية.. للحزن ايضا نهاية..للانتصار نهاية..كما للهزيمة نهاية..انفاسي تتلاحق، واشعر بالخوف والقلق والجوع يعصر معدتي عصرا، وخطواتي تقترب مع اول بوابة للتفتيش، المكان ساكن مقفر كمقبرة، تلفت حولي، بدأ لي بان المسافة بيني وبين البوابة بضع خطوات،ترتعش كل فرائسي خوفا ورعبا وانا اسمع صراخ الجندي:

- أوراق ثبوت هويتك
- ليس عندي اوراق
- من أين جاءت؟

أشرت له بيدي باتجاه مدينتي

- من هناك

وسقط مغشيا علي

ولم أصح الأعلى صوت الجندي، وقد شعرت في نبرة صوته احساسه بالشفقة علي، وانا اكره الشفقة، نظر الي الجندي:

- حمدا لله على سلامتك ابني،

كانت للكلمة رنين خاص بإذني

- اسمع بني، لو رويت لنا حقيقة قصتك فسوف ننظر بامرك

فرحت كطفل صغير ورويت له احلام طفولتي وملاعب الطفولة وايام بهجة الحياة. وعذوبة تلك الايام واخوتي هنا وهناك وعن وابي الذي تركته بالمنزل مريضا وعن واختي الكبرى التي دافعت عني عند الحدود:

- هل شاهدت فيلم الحدود أنا كنت مثل(عبد الودود) بفليم الحدود

واستطردت أروي له كل تفاصيل حياتي،خاصة بعد ان دب الدف في جسدي حيث تتوهج جمرات كبيرة ناشرة احساسا لذيذا بالدفء ورويت له عن

اخوتي من ابي وامتنعاهم عن اعطائ اي مستندات تثبت هويتي وقراري للالتحاق بالبحرية ورحلة آلاف كيلو متر الي وصولي اول نقاط تفتيش وجسدي الذي اصبح مليئا بالتورمات، فشعرت بانه صدقني، فقال لي:

- الان سنتركك تغادر ولكن لن نضمن لك الوصول الي تلك المدينة سالما

واستمرت رحلتي من بوابة الى بوابة، فكل بوابة كانت تقذفني الى الاخرى وانا مصر على الوصول الى حيث رايت بان مستقبلي من هناك سيبدأ

اشعر بانني كلما اقتربت تطول المسافة وشعرت بانني وحيد تتلاطمني امواج الرياح وكل شئ في تيبس مثلما شجرة شاخت فيبست وها انا بعيد عن الناس وعن الحياة وكل ماتبقى لي بقايا من ذكريات لقد انحدرت مثلما الحياة بي انحدرت، والبرد ينخر عظامي ولن تستطيع كل نيران الدنيا لرده وقدماي تورمت وإخذ مني التعب والإجهاد كل جسدي:

- الشعور بالضعف شعور بغيض

فلن أكون يوما ضعيفا وهدفي بالغه حتى لو كان ثمن بلوغه كل ايام عمري، والفقر لن يكون اختياري وأصبحت أرى الأسوار العالية والبوابة الكبيرة الحديدية السوداء مثل واحة خضراء وها انا اقتربت ،وكل تعب يزول وسوف ابقى انا كما يجب ان اكون،كل شئ يأتي ويذهب الا تحقيق الذات فان هي ذهبت فلن تعود

هذا حلمي وبيني وبين تحقيقه خطوات قليلة وتسمرت امام البوابة الكبيرة الحديدية وبكل عناد واصرار طلبت مقابلة المسؤولين، وبرغم طردي عدة مرات إلا أنني تحديت وفي كل مرة كنت اعود ولم بتغير طلبي قط وكنت اوضح لهم بانه لا مكان ولا مأوى لي وبان مقابلة المسؤولين بالنسبة لي قضية حياة او موت مما اضطرهم الى القاء القبض علي وتم إيداعي بزنزانة المعسكر بتهمة سجين مجهول الهوية

المريض ان كان بحاجة للدواء لكي يشفى او يعالج من مرضه فهو ايضا بحاجة الى الحياة..وانا اين هي حياتي؟ لقد اصبحت حياتي تتلاشى رويدا رويدا ثم في عجالة تتلاشى وتفر مني مثلما تفر الرمال من بين أصابع اليد،طاف بذهني القصور الرملية التي كانت اصنعها على شاطئ البحر، وتذكرت قصة (الشيخ والبحر) والتي تروي حكاية صياد عجوز خرج الى البحر اربعة وثمانين يوما وعاد دونما سمك وفي اليوم الخامس والثمانين اصطاد سمكة كبيرة رائعة ثم عاد بها بعد صراع ايام ثلاثة دامية الى الشاطئ، هيكلا عظميا بعد ان نهشتها الحيتان والاقراش

وبعد ان خاض البطل وسمكته معركة طويلة شجاعة انهزما فيها سويا هزيمة الابطال، انه صراع الحياة، وانا لا اختلف كثيرا عن ذلك الصياد والسمكة فقد قطعت في خمسة وثلاثين يوما مسافة الف كيلو متر سيرا على الاقدام وكانت الصحراء هي البحر ولكن من منا الصياد ومن فينا السمكة، لقد اصبحت جلدا على عظم ولي الان ثلاثة ايام سجين زنزانة المعسكر، احلم بالماضي واتطلع للمستقبل، ولست مستعدا ان اهزم، ومازال التحدي يملؤني وكلي امل بان المسؤول سوف يقابلني،ومر بذهني فيلم الحدود وعبدالودود المسافر بين غربستان وشرقستان والذي اضاع اوراق ثبوت هويته بين المنطقتين، احلام مثلما الكوابيس كانت تراود خيالي مثلما حلم اليقظة الذي يراودنا في اليقظة، وانا ضحية لحياة غاشمة، فرضت علي واقعا لم اختره ،وتكررت بداخل الزنزانة وللمرة الثانية بعد المائة عبارة (جاسوس)

وفي اليوم الرابع أو الخامس ماعدت أذكر فقد أضاعت الزنزانة ذاكرة الوقت دخل احد الجنود صائحا:

- أين الجاسوس؟

وبدون أرادة أو وعي مني إجابته رافعا يدي بعد جهد جهيد

- أنا يا سيدي
- تعال معي
- ألي أين؟
- لكي تقابل المسؤول ثم سحبني من يدي واخذ يجرني خلفه كما يجر الانسان اضحية العيد للذبح وعند الباب تركني للحظات ثم خرج وقال لي:
- لا تثرثر كثيرا عنده، فوقت سيادته ثمين وأنت وقتك لا قيمة له

دخلت رث الثياب، هزيلا، ضعيفا،خائر القوى، التقط انفاسي مثلما يلتقط الصائغ ذرات الذهب التي تناثرت تحت قدميه، فوجدت رجلا ضخم الجثة، اجش الصوت، ينظر الى بنظرة قاسية، وخرج صوته مثلما دوى انطلاق صوت مدفع افطار رمضان بمدينتي التي ولدت وترعرت بها، فقال لي بصوته الجهوري القوي الذي زلزلزني:

- ماقصتك؟ وماذا تريد؟ ولماذا طلبت مقابلتي؟

تداخلت الأسئلة وتزاحمت تحاصرني فأجبته بصوت واهن ضعيف:

- البحرية ..أريد الإنضمام أقصد الدخول إلى البحرية

نظر إلى ثم قال:

- للبحرية شروط، وأنت لا توجد معك أي ورقة تثبت لنا من أنت؟

همست:

- هل تسمح لي بأن أروي لك قصتي؟
- لا وقت عندي للقصص، أختصر ولخص لي موضوع قصتك

ورويت له قصة حياتي التي رويتها لكل بوابات التفتيش على مسافة ألف كيلو متر

انصت بصبر كاد أن ينفذ ثم قال:

- قصتك مثل قصة الإخوان فليني

رددت مسرعا:

- لا أعرفهما سيدي

ابتسم ،وكانت هذه هي المرة الاولى التي أراه فيها مبتسما منذ دخولي إلى غرفة المكتب،ثم أمرني بالجلوس وقال لي:

كنت قد قرأت عن اسطورة أو قصة تاريخية عن إخوان عدائيين انطلاقا في تسابق عكسا لتكون النقطة التي يلتقيان فيها هي حدا فاصلا بين البلدين

هززت راسي ولم افهم المغزى او المعنى للقصة

فهم بفطنته بانني لم افهم فقال لي:

- انت والحياة مثل الاخوان فليني كلا منكما انطلاقا بعكس اتجاه الاخر لتلتقيان في نقطة تثبت فيها هوية وجودك، هل فهمت الان ماذا اقصد،ثم ضغط على جرس مخفي بدرج مكتبه، فدخل الجندي مسرعا اليه، نظر الى الجندي آمرا إياه:

- اسمع خذه الان واشتري له ملابسا واطعموه ولا تدخله الى الزنزانة بل دعه تحت حراسة بالبهو حتى أتأكد من صحة أقواله

ونظر الى قائلا:

- ان كنت تراوغني او اكتشفت بانك كاذب فسوف ارديك قتيلا برصاصة واحدة من مسدسي هذا،

وأخرج المسدس وشهره بوجه وقال لي:

- لقد أصدرت اوامري باستدعاء اخيك وغدا لناظره قريب ام البراءة أو أنا من سينفذ بك حكم الاعدام

وفي اليوم الثاني جاء أخي الأكبر وروى للسيد المسئول وروى له قصة كيف تزوج ابي من امي على سنة الله ورسوله في احدى زيارته لمدينة أمي وتم الزواج بمباركة أهلها وبقي معها لأكثر من أربعة أشهر.

وعندما شعرت أمي بعوارض الحمل، اخبرته بذلك، فوجد ابي نفسه ملزما بالعودة الى ارض الوطن، خاصة بعد رفض امي الذهاب معه، ولظروف سياسية انقطعت العلاقة بين البلدين وبعد مرور ست عشرة عاما، أخبر والدي اخاه بانه كان قد تزوج من امي بعقد زواج شرعي وعلى سنة الله ورسوله وبانه تركها حاملا وبان الجنين من صلبه وينسب اليه، وبانه قد علم بان زوجته قد رفعت عليه قضية طلاق غيابي بعد ثلاثة سنوات من تركه لها وبان طليقته تزوجت من رجل اخر وبان ابنه بحضنة خالته، فاستخرج ابي لاخي كل الاوراق الثبوتية التى تثبت صحة نسبه الينا وبان الموجود لديك هو اخي من ابي وكل المستندات الدالة على صحة وحقيقة نسبه موجودة معي، ونحن كأخوة افتقدنا غيابه منذ اكثر من شهر فقد غادر المنزل بدون ان يعلم به أحد

استدعاني السيد المسئول واخبرني بان اخي روى له حكايتي كاملة وبانه قد قام بتقديم المستندات كافة التي تؤكد على هويتي ونسبي وبانه يحق لي الان الانتساب الى البحرية، فقاطعته:

- سيدي لم يخبرك اخي بان اهل امي قد قاموا بتسجيل ولادتي بالقنصلية، فانا لم اكن يوما مجهول النسب بل كنت بلا اثبات هوية،اما امي فلم اكن اعلم بانها على قيد الحياة الا منذ عام فقط وابي لم اعرفه الا منذ عامين فقط انا لم ابحث عن نسبى ولكني كنت ومازلت اريد اثبات هويتي والبحرية هي التي ستؤكد للجميع من اكون ومن انا..!!

عامان وانا احلم بان اثبت هويتي، لقد استبدلت كل مباهج الحياة، الشمس وزرقة البحر والحرية ،بخنادق المعسكر، لم اعشق ولم اعرف امرأة في حياتي قط سواء (امي التي لم أرها) و خالتي التي باعتني لابي واخواتي وبنات خالتي،لم اتعلق بصديق سواء ابناء خالتي بسبب هذا الشغف العجيب باثبات من انا، من هنا بدء عنادي وصلابتي واصراري على الا اتورط في الحياة باي علاقة حب، كنت اخاف من ان اظلم احدا معي فمن عاش مظلوما يكره ان يظلم، عشقت القراءة وعشت محروما منها،

عشقت مادة الرياضيات ومع ذلك كانت سبب رسوبي في امتحانات الصف الاول الثانوي قبل ان اطرد من المدرسة بعد زيارة عمتي للمدرسة وكشفت للادارة حقيقة هويتي ونسبي، الفشل كان يطاردني رغما عني، حتى يأست من حياتي، تعلمت عشرات الصنائع ولم ادخر منها درهما واحدا،كل شئ كان ضدي ولجأت الى البحرية وغدا بعد تخرجي ستكون لي حياتي الخاصة وسيكون لي اصدقاء وسوف اتعلم اولى ابجدية الحب لعلي في ذات يوم اتزوج واكون اسرة وتكون عندي زوجة واولاد ترى هل سأعيش لاشهد حياتي قد تغيرت، وفجاءني صوت العريف وهو مناديا:

- كسالى الصف الاول الى الساحة فورا وفي اقل من خمس دقائق بالملابس الرياضية اريدكم جميعكم امامي

حاولت ان اكسر عن نفسي طوق العزلة والتشرنق الذي فرض علي من اقراني بالبحرية وفتحت قلبي على مصراعيه للحوار لكل من كان معي بالعنبر كنت دائما بشوشا وبرغم اختلاف لهجتي عنهم الا انني عايشت الواقع بحذر شديد لما هو متوقع من الرفض الشخصي لي فاصبحت مثلما من يحاول انبات الورود عبر طبقات الاسمنت او الاسفلت فشفاهي ظامئة لقطرة حب، قطرة ود،اريد ان اعانق الفرح الذي هجرني منذ ان عرفت من انا؟ فانا تسلقت جبل ذاتي دونما ان تكون لدي خريطة توضح لي العلامات والدائل والاشارات الهادية للطريق وبرغم كل ذلك تكرر مفردة(جاسوس) جعلت الكلمة تفقد معناها وماعادت تثير اهتمامى للبحث عن معناها واسبابها الى ان جاء العريف في ذات صباح بوجه هربت منه الحياة واختلطت به كل الملامح وبعد انطلاق بوق الايقاظ الصباحي وانا بالملابس الرياضية في الساحة صرخ مناديا:

- انت .. ياجاسوس..لديك استدعاء عاجل وامر قبض واحضار من قبل ادارة الاستخبارات

هكذا انطلقت كلماته بدوي مثل دوي مدفع اصاب هدفه

فجرت كلماته المدويه كل عنفوان ذاتى وتناثرت على جسدي كتناثر الشظايا المخترقة كل ما تبقى مني من كبرياء لإثبات هويتي وذاتي

كان الوقت ظهرا حتى دخلت الى مكتب شبه مظلم ، وجدت نفسي امام شخص في وجهه صمت عابس مقبض، متكئا بمرفقيه على طاولة المكتب، ونظره مصوب الى، وقفت امامه كتمثال، بدء ضوء الغرفة اصفر كئيب ومقبض،احسست بحزن ويأس وبان نهيتي قد اقتربت، تحث بنبرة ساخرة:

- لا تروا غني قل الحقيقة اساعدك

ايقنت بان الشر يتطاير مع كل كلمة بل كل حرف نطق به

- ماذا؟ لم افهم معنى سؤالك سيدي

وقف الرجل فجأة، التفت الى ،وجذبني من كتفي متحديا، ليس في وجهه انفعال آخر سوى الغضب:

- بدأت ترواغ، انت متهم بالتجسس، ولم يتبق الا اجراءات شكلية وأودعك السجن،

يسيطر علي شعور بانني لابد من ان اكون حذرا، اى كلمة ستحسب علي

- سيدي لم افهم معنى كلمة جوسسه فانا مواطن عادي لم اغادر وطني ولاعلاقة لي باي شخص بالداخل او الخارج

قاطعني غاضبا:

- مواطن..!! اوراق ثبوت هويتك. كتبت بقلم رصاص وانا استطيع بهذه الممحاة الغاءها وشطبها تماما، قلت لك اخبرني الحقيقة، اساعدك، ولا ترواغني

تلعثمت كلماتي،جف حلقي، انكمشت في نفسي

نظر الرجل الي وجهي وهددني باشارة اصابعه المضمومة

- اسمع قل لي الحقيقة وكل ماتقوله سيبقى سرا بيننا، لن يعرف به احدا سوانا، اعترف، وينتهى الامر، او اقول لك:تعال ووقع هنا على اعترافك

اضطربت كل جوارحي فقلت له:

- سيدي على ماذا اقول، واي حقيقة تريد ان تعرفها، انا الى الان لم افهم سبب استدعائي ووجودي امام سيادتك

اخذ نفسا طويلا من بقايا سيجارة كانت سجينة بين اصبعيه:

- لدي الدليل والبينة، بانك جاسوس وبانك على علاقة بدولة تعيش حروبا طائفية وهذه الدولة تتهمنا باخفائنا قسرا لشخصية سياسية، ها مارايك الان، اتعترف؟ اما توقع على اعترافك؟ فالامر سيان عندي، ومصيرك السجن..!!

- بينة، اقسم

قاطعني:

- القسم ليس عندي

- انا لا اكذب سيدي

- اذن اعترف، هيا اسرع، لدي تحقيق آخر

فوجئت بخطواته ودفعه لباب الغرفة

حاولت ان اهرب من نظراته القاسية، وهو يقول:

- لماذا تسكت، انطق. لا اريد ان احقق معك، اريدك ان تعترف وينقضى الامر خشيت بطشه، فلهجته لا توحى بالاطمئنان

- سيدي انا لا اعرف شيئا عن تلك الدولة

-

خرجت كلماته وهو يزداد غضبا كأنه يريد ان يفجر قنبلة:

- وهذه الرسالة ، لافائدة من الانكار، والدليل والبينة تدينك

اسرعت بقولي:

- لا علاقة لي بها هذه الرسالة سيدي

- انت واهم وانكارك يؤكد اتهامك، فهذه الرسالة من والدتك، قل لي:

- كيف عرفت عنوانك؟

اخفيت دمعة هربت من عيني وتمتت :

- امي..ليست بامي ..بل خالتي، وانا لم اكتشف هذه الحقيقة الا بعد ست عشرة عاما بان امي هي خالتي

اخذ الرجل يدور حولي في دورات لولبية متنقلة، وبضربة واحدة طرحني ارضا، وجلس على ظهري بثقله المتتلئ ووجهي على الارض وبكل وحشية:

- قلت لك لاتراوغني، ولا تكذب علي، انت حثالة، جاسوس قذر، وكل مارويته لي، متوقع من مراوغ مثلك

في تلك اللحظة شعرت بان انفاسي بدأت تهرب مني وكأن الهواء قد جف بحلقي:

- انا..لا اعرف ..شيئا عن الرسالة ومن هي؟...امي ..!!

نهض الرجل من على ظهري،:

- بدأت تثير غضبي، حسنا الضرب وسيلة ستجعلك تعترف

لم اشعر في حياتي قط بان الصمت الداخلي مرعب الا في تلك اللحظات

نظر الي وقال:

- انهض يا تحفة

وبصعوبة بالغة نهضت، اسمه لهاث انفاسي، تنهار كل مقاومتي، يجرني لكي اسير، بصعوبة بالغة اتحرك

يصرخ الرجل:

- خذوه الي الزانزنة، مزيدا من الضرب حتى يعترف هذا الجاسوس النكرة

شعرت بان تنهيدة (الاه)احيانا مريحة ومنجية

تساقطت على ظهري ضربات الجلاد ،لم انطق بكلمة، ولم يتوقف الضرب حتى تأكد الجلاد بأن العصا التي يضربني بها طرفها قد تفسخ واصبح فتائل، فشعرت بان مقاومتي تنهار ،فسقطت مغشي علي من الالم

قدمي تؤلمني، والالم لم يتوقف، وبقى التورم يضغط على كل اجزاء جسدي، احاول النهوض، فاسقط ،احاول الوقوف على قدمي تؤلمني،زحفت الى الركن واخفيت وجهي بين ساعدي. واجهشت في بكاء هيستيري،شعرت بالظلمة تزحف على الزنزانة التي يشوبها ليل اسود، فخطرت ببالي اسطورة الخفاش الذي ارسل بسلة بالظلام ليوصلها الى السماء يوم كانت الارض لا تعرف الظلام وكانت دائما في النور والنهار، واثناء رحلة الخفاش احس بالتعب، وضع السلة على الارض ليستريح، واغفى قليلا واثناء اغفائه جاءت الحيوانات واحاطت بالسلة ودفعها الفضول الى رفع غطاء السلة لرؤية مابداخلها وانتهز الظلام فرصة وهرب من السلة ومنذ ذلك الزمان، حكم على الخفاش ان ينام طيلة النهار ويجوب الليل باحثا عن الظلام الهارب ليعيده الى السلة، فهل يا ترى سيجد الخفاش الظلام ويعيده الى السلة من جديد؟ ويعم النور والنهار الارض؟ لا اعلم..!!

دققت باب الزنزانة الحديدي بكلتا يدي وصرت اصرخ:

- اريد المحقق الان، لقد تذكرت انها امي..لقد قيل لي بانها اقسمت بعد طلاقها من ابي بانها سوف تضحي بشبابها من اجلي ورفضت خاطبين كثرا جاءوها، وكانت تقول لهم حياتي كلها من اجل ابني وحيدي وهبت له كل عمري

ركلت الباب برأسي وبقدمي، وسمعت في داخلي همسا:

- لا داعي لصوتك العالي الذي لم يتجاوز صدرك، وامك تركتك طفلا وتزوجت،لتلحق بعمرها قبل ان يضيع، وهي لم تهبك عمرها، بل وهبتك لخالتك، فاصغيت الى صمتي، وقد تقلصت كل عضلات جسدي، وتكورت حول نفسي وتمنيت ان افري الارض لتبتلعني او اموت الساعة، فامي تركتني وانا طفا لاه لا ادري من امور دنياي اي شئ وكذلك فعل ابي، وها انا ادفع عمري ثمنا لرسالة وصلتني من امي بعد عشرون عاما من الفراق، احتضنت نفسي لعلني اجلب بعضا من ثقة، من دفء من حب لذاتي وانا في زانزانتي وحيد وقد ضاع عمري..

دخل المحقق الى الزنزانة، لاحظ المحقق قلق عيناي الغير مستقرتين، ثم بادرني بقوله:

- انتهت القضية

ثم امسك بيدي، ثم جلس وسحبني كي اجلس بجواره وقال:

- اليوم ننتهي من الموضوع ونقفل الملف

تمتمت وقلبي يخفق بدقات كطبول في حلقة ذكر،اشعل سيجارة ومع دخانها بدأ تركيزه بعيني

- هل تدخن؟

- لم ادخن في حياتي لم اعرف مذاقه طوال حياتي

- هل انت متحمس للخروج أم فتر حماسك وتراخت عزيمتك ؟

نبرة صوت المحقق غير نبرته السابقة، هززت رأسي، وهو يقول:

- انهم اغبياء، بهائم، جاءوا الي بتقرير غير صحيح

- لم افهم ياسيدي

اخذ نفسا عميقا من سيجارته،ربما اراد ان يستطلع رد الفعل على وجهي او ربما للتمهيد لشئ خطير قادم.. ماعدت ادري، نظرت الى الارض، نفث المحقق دخان سيجارته،وقد هدأت نبرة كلامه:

- موضوع التجسس لا اساس له، وصدقك كان طوق نجاتك، لقد عرفنا الموضوع بتفاصيله، انها مجرد رسالة ام تقطن بذلك الوطن وماعاد ذلك لاشئ يذكر

لقد امرت بالافراج عنك وستعود الى زملائك، لم تعد جاسوسا، بل مواطن شريف

تمتمت:

- هكذا بسهولة..!!

لم يسمعني، وشعرت بانه لم يعد لديه ثمة كلام يقوله لي، ثم واقف بمواجهتي وهو يقول:

- الوطن مثل المنزل اذا سكنه غريب مع سكانه ضاقوا به، انا يا بني لا احب المواعظ، ولكن يجب ان تفهم بانني كنت اؤدي واجبي، اتعبتك معي، وانت من دمنا ولحمنا

لم يكن عندي رد، ذهني يموج وكان الف سفينة وسفينة تبحر في امواج بحر ذهني المتلاطم، تنبهت على صوت المحقق:

- الباب مفتوح، افراج ..!!

عدت الى رفاقي لم يتحدث معي عن امر القبض او موضوع التحقيق كأن الجميع قد اقتنع بموقفي او ان الاوامر قد صدرت لهم بعدم التحدث بالموضوع، ومنهم من نظر الى باعجاب ومنهم ايضا من رمقني حاسدا، ولكن تقاربت المسافة بيني وبين رفاقي، وبدأت تجمعنا حلقات مسامرة واخبرتهم عن حبي للطعام وطهوه، وباني سوف اقتحم مخزن التموين الليلة واعد لهم وجبة دسمة، لطمني(نوح) صديقى الصدوق الذى كان يخفف عنى الآلام والمحنه وأحد الرفاق دفعنى على كتفي وقهقه قائلا:

- سأكون معك في هذا الاقتحام اللذيذ وسوف اعمل معك بوظيفة مساعد طباخ

نظرة اليه مبتسما:

- ومساعد لص ايضا ..!!

دائما كل منا تدور بذهنه تأكيدات غير مؤكدة فمن كنت اظنهم ضدي هم الان اعز اصدقائي، اخذتنا نوبة همس في العمل، فنحن نقوم بعمل وطني وكانت يداي تحمل الالغام بخبرة ماهرة لم اعرف متى وكيف اتقنتها، والسعادة تغمرنا جميعا فنحن نقوم بتحصين الساحل ونزرع الالغام على شاطئ البحر ليكون مقبرة لكل غاز اثم يحاول اقتحام شاطئ وطني، كانت رمال الشاطئ لامعة في وهج الشمس ولون البحر يلوح بزرقة صافية صفاء ونقاء بلادي، وكانت السعادة تغمرني واشعر بزهو الفخر فانا من ضمن الذين يقمون بتأمين الوطن وتحصين الشاطئ

كانت ايام تحصين الساحل تملؤني بالحماس فانا احمي شاطئ بلادي الطاهر، كانت عيوني ترفض النعاس وكأن النوم في تلك الايام قد فقد مهامه، الوطن يستغرق كل تفكيري ويسيطر على وجداني ،والرفاق اعتادوا على الوجبات التي اتقنتها واصبح امر كوني طباخا ماهرا شائعا بكل المعسكر وتقبل الجميع لكنة لهجتي فانا لم اتقن لهجة رفاقي وكلما حاولت او جربت اضع نفسي في دائرة السخرية لذا قررت بان اتكلم بلهجتي مادام الكل يفهمني،فبعد نهار طويل من الاجهاد بالعمل المتواصل في زرع الالغام كنت افأجئ الجميع باكلة دسمة ،

وانتظر حتى تصدر لنا الاوامر بالراحة المؤقتة لكى نأخذ قسطا خفيفيا من الراحة، ذهبت الى مكان خلف احدى الكثبان الرملية كى انادي زميلا لنا ،وماهي الا لحظة وكأني سمعت دوي انفجار وفي لمح البصر شعرت وكأن ابواب الجحيم قد فتحت..!!

الوقت يتلاشئ فلا وجود له والزمن يمسح عقارب الساعات، الكل حولي وعلى شفتي كل منهم ابتسامة، واتقدت عيون الجميع من حولي، وانا ممدد على الفراش بالمستشفى، وشعرت بان نهايتي قد ازفت، حتى سمعت صوتا:

- حمدا لله على سلامتك، لقد نجوت من الموت باعجوبة

قلت وانا اتفقد جسدي:

- ما الذي حدث؟

لقد انفجر بجواركما لغم وبعض من شظاياه نالت منك وقد اجريت لك عملية جراحية والاطباء طمأنون عليك

فقلت مبتسما:

- عمر الشقي

لم اكمل اجابتي، حتى ضحك زملائي وهمس احدهم:

- لن تغير لهجتك حتى وانت غير احلك الظروف

فقلت:

- وجودكم حولي غاية تمنيتها طوال عمري فبوجودكم بلا شك لن اشعر بألم ابدا

بالالم

كنت أؤكد لنفسي يوميا بأن ما مررت به وامر به الان هو مجرد ازمة عابرة وبانني سوف اعود الى الرفاق ونكمل دراستنا فنحن في عام التخرج لقد انقضت ثلاثة سنوات بالكمال والتمام، لم تدهشني قدرتي على تحمل الألم فانا استطيع احتواء اللحظة والتفوق على كل الصعوبات والظروف المعقدة فلطالما استطعت تجاوز الازمات ولن تؤثر في هذه الشظايا التي اخترقت رجلي وبعض من الامعاء وسوف اتعافى واعود من جديد لافضل واغادر المستشفى ما على الان الا الصمود فالوطن بحاجة الي كم هي رائعة كلمة وطن، كثيرة هي الصعوبات والحكايات والمواقف التي مررت بها لكي اصل الى نطق كلمة وطن، تستيقظ في داخلي كل سنين عمري وتصير كل خلية في جسدي رادارا غاية في الاستشعار والانتباه تجرفني السنوات لتنقشني على جسر السنوات الاولى عندما كنت ابحث عن نفسي ولم اكن اعرف انذآك من انا؟

الالم يزيد الحزن حزنا مثلما الفرح يزيد الفرح فرحا، هكذا هو ايماني وارادتي الوحيدة التي هي يقيني تكمن في ان اكون انا ذاتي، والان وصل بي الامر الى الحد الفاصل مابين ارادتي وما اردت تحقيقه، لقد كنت دائما صلبا لكي احقق ذاتي وهويتي مثل فارس يقبض على لجام الفرس لكي احتفظ بكرامتي وكبريائي والان سيصدر القرار، قرار عودتي الى المعسكر او قرار فصلي،لذا وجب علي تهئية نفسي لكل الاحتمالات فالرفاق يمتحنون وبعد ايام سيتم الاعلان عن حفل التخرج وانا مازلت قابعا بغرفة المستشفى وحيدا فالاوفياء قلائل والصادقون قلائل، لقد افسد الدهر كل القيم وانا ماعدت اثق بأحد سوى نفسي، اين اخوتي؟ اين اعمامي؟ اين اقاربي؟ اخاف لو مت ستسير جنازتي الى القبر ولن يكون ثمة احد وراءها، امواج الحيرة تتلاطم في داخلي تلطم جبين الواقع الصخري وترتد،لقد سئمت كل شئ، لقد غاصت في اعماقي احزاني ووحدتي القاسية تؤلمني، كاذب من يقول لا اخاف الموت، لقد سئمت كل شئ،واشعر بان سنوات عمري قد ضاعت سدى واخاف من ان اعيش بقية ماتبقى لي من العمر انسان على الهامش ويطويني النسيان ولكني سوف ابقى وانتظر القرار وبعدها انا من يمتلك حق تقرير مصيري ،فلن يفهمني احد مثلما افهم انا نفسي..!!

كان مجلسي في مؤخرة الطائرة وكنت انظر الى السحب المتراكة كانها غابة معلقة في السماء واتخيل السحب اراضي معشوشبة وطافت بذهني صورة لثمرة جافة تسقط من على قمة شجرة وتظل تتصادم مع الاغصان الجافة حتى تقع على الارض صورة متقاربة مع حياتي متطابقة مع واقعي الحالي، الملم شتات نفسي لكي اتأقلم مع الحياة من جديد فقد خرجت من المستشفى بكلية واحدة واصابة في الساق وبعض من امعاء تمكنني من الحياة لكي احيا بنصف انسان، ورجعت الى البداية الى منزل الوالد او بيت العائلة ،وقد اتخذت قرار العودة للدراسة مع العمل فانا لست بعجز ولن اعيش عالة على احد حتى لو كان هذا احد اخوتي فانا لن اتسول قوت يومي لانني لست بشحاذ واكره الشحاذة ولن اقع رهين ذلة السؤال ولن اعتمد الا على الله وعلى نفسي واتقن العديد من المهن والحرف اخرها مهنة الطبخ،هربت من بين شفتي ابتسامة باهتة تعبر عن رفضها لممارسة الطبخ كمهنة لانني اهوى الطبخ ولن امارسه كمهنة ما حييت ،وايقظني من حلم اليقظة صوت مضيفة الطائرة وهى تطلب مني ربط حزام الامان، ولكزني الذي بالمقعد على يساري قائلا لي:

- كم هي جميلة ورشيقة هذه المضيفة الحسناء

ابتسمت وهززت رأسي واستغرقت في شرود ذهني من جديد

كانت غرفتي بالدور العلوي بمنزل الوالد وكان يشاركني ابن اخي الاكبر غرفتي وكان بمكانة صديق لي اشاركه افكاري واستمع اليه دائما واروض بعضا من شطحاته وعندما اخبرته بانني في حاجة الى عمل نظر الى مبتسما وقال لي:

- انت تجيد صياغة الكلمات وتستطيع الكتابة اليس كذلك؟

كنت اصغي اليه حتى يكمل رأيه

- لم افهم قصدك

-

- لماذا لاتكتب للصحف وللاذاعة وتكمل دراستك؟ وستبقى مابين المدرسة الثانوية وغرفتك ولا داعي لممارسة اي عمل اخر

غمز غمزة ذات معنى ومط شفتيه

- مارأيك؟
- ومايمنع؟

واخرجت كتبي الدراسية وبدأت القراءة كعادتي دائما اقرأ بصوت عال، لكى اتغلب على صوت شخير ابني اخي النائم على سرير بجواري وماهي الا لحظات الا وسمعته يقول:

- عمي دع عنك المذاكرة الان ونم
- ولكن غدا لدي امتحان جزئي بمادة التاريخ
- عمي غدا عطلة رسمية
- ماذا؟ وماهي المناسبة للعطلة الرسمية فغدا لدينا امتحان
- عمي غدا عيد الشجرة و عيد الشجرة عطلة رسمية

همست:

- يا لعظمة هذا الوطن تعطل المدارس بمناسبة عيد الشجرة

ولم انتبه الى ابتسامة ابن اخي وهو يغمض عينيه في تجاهل ضاحك لغبائي

كانت وستبقى لهجتي هي العائق وكنت كثيرا ما اسمع:

- لم افهم كلامك؟
- مارايك لو اترجمه لك
- موافق
-

لم تعد تستفزني تلك العبارات بل كان يسيطر علي احساس، حال يصيب القلب لست ادري، ولكني اثناءها اشعر باني في راحة بال لاقبلها ولابعدها، نفس صافية لاتعكر صفوها تلك التعليقات بل رحت اشعر بالطمأنينة وراحة البال بعد ان اثبت هويتي واكدت للجميع ذاتي

كانوا هنا جمعيا الا انت؟ اين كنت؟

لاول مرة يكلمني اخي الاكبر بهذه الطريقة وبهذا الاسلوب الجاف

كنت بالاذاعة لدي بعض من اعمال

لم يكن ينتظر مني اجابة وقال لي:

- الجميع كانوا هنا يطمئنون على صحة الوالد، الاطباء اكدوا بان حالته الصحية تزداد سوءا لقد فشلوا في تشخيص حالته ،الوضع يحتاج لاتخاذ قرار بنقل الوالد للخارج ولكن لم يسمحوا لنا الاطباء بذلك

قال لي كل شئ دفعة واحدة وانصرف وتركني حائرا فذهبت الى غرفة ابي رأيته وجه شاحبا وهو طريح فراش الاحتضار ،متهالك لا يقوى على الحركة، فقلت:

اين ذلك .. تلك النظرة الصارمة، اين ذلك الجسد القصير الملئ بالحيوية، وبرغم اني لم اشعر في حياتي بذلك الحب الذي يحتمه واجب الابناء نحو الاب، الا اني في هذه اللحظة ..لحظة الاحتضار.. وابي على فراش الموت، بان ابي هو اقرب الناس الى قلبي، وبانه ضوء الامل الوحيد في حياتي وهاهو ضوء الامل يخبو ليغيب في عتمة الكون الشاملة، فشعرت بالفزع، عندما رأيت ابي وقد اصبح جثة هامدة..!!

فصرت اهز جسدي ابي فلا يهتز الجسد ارتعدت، افلت قبضة يده من يدي،عيناه شاخصتان تنظران الى مالانهاية، نظرة فارغة بلا معنى، لقد فارق الدنيا من كان يحب متعة الحياة لحد اني كنت مقتنعا بانه لن يغادرها ابدا،وانتهى بي الامر في دخولي بنوبة من البكاء واصرخ بصوت لم يغادرني لقد مات ابي وخبأ نور الامل بعمري

اهز جسد ابي صحح ابي

خلال حياتنا القصيرة او الطويلة تتفاوت حظوظنا ،وقد آن لي ان ارحل..كل شئ يطالبني بالرحيل ومغادرة منزل ماذا يمكن ان اطلق عليه منزل من؟ خاصة بعد انتهاء مراسم الدفن وايام العزاء تم استخراج الفريضة الشرعية وكلنا جعلنا اخي الاكبر هو الوصي الشرعي ولكن ماحدث شيئا اخجل من ذكره ففي ذات ليلة من ليالي المأتم قالت لي زوجة ابي:

لانصيب لك في ميراث ابيك فقد قام بتسجيله قبل وفاته باسمي لقد وقع عقد بيع لي فانا المالك الان لكل شئ

قلت لها امي منذ حضوري الى هنا جئت طالبا اسرة واهلا وليس طالبا للمال فالمال لايعنيني

وتكدست في داخلي غيوم ثقيلة لم يرها سواي ،تسكب امطار الحزن السوداء، انها غيوم الفراق، سوف اغادر منزل زوجة ابي ساغلق حقائبي وارتب بداخلها كل اغراضي الرحال معي اينما رحلت، وفي تلك الليلة اكذب لو قلت كنت ساهرا لوحدي فقد كانت بغرفتي التي ساغادرها كل ذكريات عمري فانا والذكريات سهرنا حتى مطلع الفجر عندما جلست بشرفة الغرفة وكنت اراقب اسراب الطيور المهاجرة تتباعد وتتقارب فيما بينها لتعود من جديد لتتقارب

يقولون دائما بان للحقيقة وجهان ولأن للحقيقة وجهين فان لم اعش الا مع وجه واحد ويبقى الوجه الاخر لم اعايشه معايشة حقيقة فالوجه الوحيد الذي اعرفه هو سعي الدائم والمستمر لاثبات هويتي بلا كلل ولا ملل وبانني لم اكن ساقط قيد او عائد هذه كانت معايشتي لوجه الحقيقة الواحد وان على يقين بان هناك وجه اخر لم اعايشه، فهناك بالطبع وجه للجريمة وللخداع وللخيانة لم اعشه ولم اتعايش معه طوال سنين عمري،فالحزن الذي فتحت الظروف كل ابوابه والغربة التي تنفذ في اعماقي عبر الزمان والمكان حصنتي من ان اعايش وجه الحقيقة الاخر والذي اراه بشعا قبيحا لايمكن من اعايشه او اتعايش معه، ذهبت الى البحر الذي اعادني الى مسقط رأسي وكأنه يعيد الى ذكريات الطفولة البريئة التي كادت ان تندثر في ضجة وصخب الحياة اليومية، تلك الطفولة البهية برغم الفقر استرجعت ذاكرتي تلك الصور الجميلة والقصور الرملية التي كنت ابنيها لكي تجرف اول موجة لتغرق قصوري الرملية في اعماق امواج البحر المتلاطمة ،تذكرت تلك الاحياء القديمة والازقة بناسها وطيبة اهلها والباعة المتجولون، صورا واسماء اعتقدت بان النسيان قد طواها ولكن مشهد البحر اعاد الى طفولتي حية من جديد واضحة الملامح، فسرت اقفز على رمال البحر، لقد تحولت الى طفل يتقافز بكل رشاقة وطلاقة ولم تكن رجلي المصابة تمثل لي عائق فقد نسيت كل آلالمي واحزاني على شاطئ البحر قفزت فوق الصخور وبعد ان سقطت و تعثرت شعرت بان الصخور ارق من قلوب بعض الناس في هذا الزمان،وبحت للبحر بكل اسراري، مبللا قدمي بالماء بكل فرح طفولي وبكل انتشاء وعلى الرمال استلقيت وكاني استلقي على فراش وثير ناعم ،فالبحر ورمال الشاطئ واحدة متشابهة بكل مكان فالبحر له وجه واحد وهو الحقيقة الوحيدة الصادقة التى لاتتأثر بالمكان والزمان وبجوار المنارة التي ذكرتني بتلك المنارة نقل الى الهواء رائحة زكية لاكلة اشتهي مند زمن فذهبت بملابس المبللة اتابع رائحة الطعام حتى وجدت مطعم (الحاج اشتيوي)(للفول المدشش) نعم هي نفس الرائحة ونفس الطعم وان اختلفت التسمية ،ولست اعلم لماذا كنت اردد ابيات من الشعر الشعبي لم اعد اذكر قائلها سيطرت على كل تفكيري تقول:

خذ واثقة منى وخذ نصيحة

اعبا على روحك نهار الطيحه !

دير حسابك

لا تقول ناسك لاتقول احبابك

وانسى اللى خششتهم من بابك

وحتى اللى داير امعاه مليحه .!

خذ واثقة منى وخذ نصيحة

اعبا على روحك نهار الطيحه !

رده بالك

خلي تصاريف الزمان .. اقبالك

انسى ضنا عمك و زاد خوالك

الوقت ما تضمنش برمة ريحه !

خذ واثقة منى وخذ نصيحة

اعبا على روحك نهار الطيحه !

خذ كلامى

اجمام شارب من سموم ايامى

ملدوع ومجرب و ياما كامى

و كمين جرح ينز بدد قيحه !

خوذ واثقة منى وخوذ نصيحة

اعبا على روحك نهار الطيحه !

ذهبت الى الفندق ابحث عن غرفة،وبمجرد ان استلمت مفتاح غرفتي، ونظرا لأن مفتاح الغرفة كان كبيرا وثقيلا فاني داعبت موظف الاستقبال قائلا:

- انه ليس مفتاح غرفة، بل مفتاح المدينة

وتلقيت ابتسامة غامضة لم اعرف ماذا يقصد من خلالها ،فلقد كنت جائعا حقا لا الى الطعام وانما الى النوم، نمت بعمق لأفاجأ بان الوقت ظهر وعلى الفور كافأت جسدي الذي ارهقته كثيرا ومع هذا فانه يتحملني كافأته بحمام منعش واندفعت المياه على جسدي وكأنها موسيقى مائية تنفذ من الجسد الى اعماق الروح

اكملت دراستي الجامعية وتخصصت في التاريخ القديم لعشقي وشغفي الدائم والمستمر لمعرفة اصل الاشياء مع يقيني بان من كتب التاريخ هم اشخاص لهم رؤاهم واهوائهم الشخصية وبان النقوش التي تركها الاجداد في الكهوف ماهي الا رسومات تعبر عن اصحابها ولاترصد مراحل تاريخية شاملة ولكنه العشق الازلي لمعرفة اصل الاشياء جعلني مولعا بقراءة التاريخ وخاصة عندما عثرت على مرجع تاريخي يذكر فيه كاتبه بان(قبت) هو اسم لقبيلة ليبية ذكرت في عهد تحتمس الثالث ق.م من الاسرة الثامنة عشر كما ذكرت على لوحة أمنحتب الثالث ق.م من الاسرة الثامنة عشر وكان الاعتقاد السائد بان هذه القبيلة من سلالة جمعت بين الليبيين والنوبيين منذ العصور القديمة

ويكتبها اسمها احيانا قبط او كبت فهل يعقل بان الاسم الذي ينطف باللغة الاجنبية على مصر يكون هذا هو اساس واصل مصدره؟ لا اعلم واستمر بحثي عن اصل الاشياء في التاريخ القديم حتى وصلني خطاب تعيني كمدرس للتاريخ بقطاع التعليم وباشرت عملي مند استلامي خطاب تعيني ولانني مغرم بالنشاط فقد كونت فريقا للنشاط المدرسي في مجال القصة والشعر والصحافة والاذاعة وتواصل عطائي للاذاعة وللصحافة ومن خلال فريق النشاط المدرسي قمنا بحملة تشجير وجعلت يوم المعلم عيد للشجرة وتواصلت بمراسلة ابن خالتي وابلغته بكل تطورات حياتي الى ان جاءني خطاب من خالتي تقول لي فيه بعد ايام ستزورنا والدتك ،اذا اردت رؤيتها احضر خلال الاسبوع القادم، صرخت:

- يا الله ..بعد مرور خمسة وثلاثين عاما سالتقي ولاول مرة بأمي

وانهمرت دموعي ورحت في غيبوبة لم ادر كم مكثت في المستشفى فزوجتي لم تخبرني بل كانت تردد بكل وقت:

- حمدا لله على سلامتك، سنذهب جميعنا لمقابلة والدتك، وبناتنا في شوق لمقابلة جدتهم ..!!

لقد اثبت للجميع بان الجمل ان وقع وكثرت حوله السكاكين الا انه قادر على النهوض ومواصلة السير وتحمل وهج الرمال وقسوة الحياة بكل صبر وجلد ورغم الظروف المادية القاسية وصعوبة الحياة الا انني واسرتي الصغيرة كنا ننتظر بفارغ الصبر موعد العطلة المدرسية والذهاب لمقابلة امي، فهل ياترى ستعوضني الايام عن سنين عمري التي مضت؟ فالماضي عندما يذهب لن يعود،وامي تأخرت في موعد مقابلتي وانا لا احب المتاخرين، ولكن لامي التمس العذر ،فلربما عذرها كان اقوى منها. فهل سيتحقق ما حلمت به طوال عمري والتقي فعلا بأمي؟

وتحقق حلم من احلامي المتعددة والتي عجزت عن تحقيقها فقد حلمت بالقصور وبنيتها على الرمال وحلمت بالاستقرار ومازلت اعيش الاضطراب وحلمت بان يكون لي اعمام واخوال ولم يتحقق برغم وجودهم وحلمت بمكتبة اضع فيها ثروة العمر الوحيدة، كتبي، بلغت الخامسة والثلاثين والحلم ضائع، رف واحد لم المكتبة لم اتمكن من تأمينه وظلت كتبي اكواما هنا وهناك وتحت السرير وفي زاوية الغرفة وفي المطبخ احيانا،ظلت عرضة للغبار وللفئران، ولكن اليوم فاجأتني زوجتي باحضار مكتبة خشبية اضع فيها كتبي فقلت لها:

الكتب مثل الانسان،مثلي ..ضحية لقدر غاشم ياكلها ببطء دون اهتمام او تفريق بين التافه والقيم، فحمدا لله بان رزقني بزوجة لملمتني وجعلتني اشعر بالبهجة وبان الامل سيبقى مابقينا نحن بالدنيا، لقد حققتي لي حلم من احلامي الكثر

هل نسيتم شيئا يابنات؟ سننطلق عند الفجر على بركة الله فطريق السفر طويلة، وكانت بناتي يتصارعن على من تجلس بجوار النافذة وبعد مشاجرة قصيرة بين الاخوات انهت زوجتي الخلاف القائم وقررت توزيع الادوار بينهن بالتساوي فكل واثنتان من بناتي الخمسة ستجلسان بجوار النافذة لفترة ،واستمررن باللعب والصراخ داخل السيارة، كم تفرحني هذه الوجوه البرئية المحيطة بي فهن كل دنياي وكل كوني وما عداهن يتلاشى ويغيب، فزوجتي وبناتي هن اغنية الحب التي تعزفه الحياة على اوتار قلبي، تحركت بنا السيارة ولغط بناتي لا يفتر وانا غارق في رحلة داخلية في اعمق اعماق نفسي فكيف سيكون اللقاء بأمي التي حرمت منها خمسة وثلاثون عاما

بمجرد دخولي الى المدينة التي ولدت وترعت فيه شعرت بان الفرح عاد يرفرف في قلبي كطائر يأوي الى عشه بعد مشوار طويل

يبدو اننا لانعرف قيمة المكان الا اذا ابتعدنا عنه،هذه الامكنة والحارات والازقة شهدت طفولتي ،دخلنا الحارة..واقتربنا من منزل خالتي،لا اريد ان ادخل في تفاصيل مملة، فالتفاصيل زنزانة محكمة .. الساعة اقتربت من الفجر ..سكنت الاصوات والضحكات..ونام الجميع..نادتني خالتي،فدخلت الى غرفتها فاقمت بفتح صندوق خشبي وقدمت لي مظروفا، وقالت لي :

- افتح المظروف

فتحت المظروف فوجدت به نقودا،قلت لها:

- خالتي لست بحاجة الى النقود مستورة والحمد لله

- انها نقودك

- ماذا؟

- انه ست عشرة الفا التي طلبتها من والدك رحمه الله

حقك خالتي ولا دخل لي بهن

- بل حقك يا بني وانا اعتبرتهن امانة عندي

- لاحاجة لي بهن

- بل انت في امس الحاجة لهن الان

- لا خالتي لن اخذ منهن مليما واحدا

- بل ستفعل يا بني فوالدتك ستأتي بعد غد ومعها بناتها وانت تعلم بان والدتك ان لم تجد مسكنا ستغادر من جديد

- بناتها ؟!

- نعم لك اختان من والدتك

-

همست اختان من امي بجنسية مختلفة واخوة من اب بجنسية مختلفة عندها ادركت لماذا كان اصرار اختي عندما كنت معها بنقطة الدخول لاول مرة وطلبها بان لايتم تسجيلي في قيودات العائدين بل طالبت بان اسجل ولادة عارضة وطافت بذهني اسطورة عليسة مؤسسة قرطاج تلك الملكة القادمة من مدينة صور بلبنان والتى جاءت الى شمال افريقيا لتؤسس القرية الحديثة قرطاج والتي طلبت اختيار مكان يعادل جلد ثور لانشاء المستوطنة بعد نسر الجلد الى خيط طويل احاط بالهضبة وقد تكررت هذه الحكاية في صدر الاسلام عندما طلب عمرو بن العاص رقعة ارض لبناء مسجد الفسطاط، هكذا هي اساطير وحكايات التاريخ تشبه حكايا واساطير واقعي الذي اعايشه،

وافقت على اخذ المبلغ من خالتي واسهمت معي زوجتي بمبلغ من المال لشراء شقة لائقة لامي واختاي وطلبت من خالتي ان تتم مقابلتي لامي بمكان عام يعج بالناس، استغربت خالتي طلبي، فقلت لها:

- ان لم يقدني احساسي اليها فسوف اغادر المكان واعود ادراجي من حيث اتيت..!!

شعرت بان الميدان الذي حددت للقاء امي على اتساعه بدء يضيق، وقلبي تتسارع دقاته وسألت نفسي:

- لماذا اخترت هذه الطريقة لمقابلة امي واي تحد هذا الذي اريد ان اعيشه؟ وهل ساعرف امي من خلال عطر رائحتها التي لم تغب عني يوما وكيف في هذا الازدحام سيكون اللقاء؟

تزاحمت الاسئلة واصطكت اسناني وارتعد جسدي وصرت احدق بكل الوجوه، فلاح من بين الازدحام ووسط كل الناس جسد نحيل كورت عيني وحدقت به سددت البصر وتقلص القلب، فالقلب بوصلة صادقة الاتجاه وقلبي يحدثني انها هي هي امي وظلت عيناي تلاحقها وماهي الا لحظة الا ووجدتني اقف امامها طالت وقفتنا فرميت بنفسي بين احضانها وانا اتمتم:

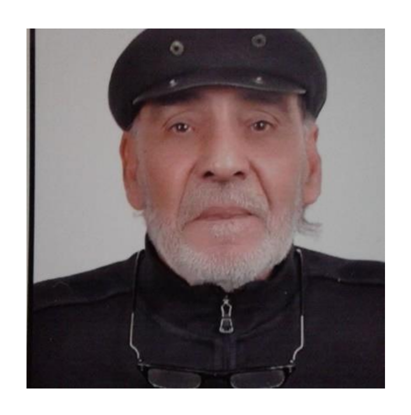
- امي

وعندما رفعت رأسي رايت دمعة تترقرق في عينيه وهي تتطلع الى السماء تبتهل الى الله

وهكذا قابلت امي بعد مرور خمس وثلاثين عاما من عمري،رجعت انا وزوجتي وبناتي وهربت من عيني التفت ونظرات الى بناتي الخمسة وقلت في داخل نفسي:

انعم الله علي بخمس نجوم رائعات هن كل دنياي وكل عمري ولكن برغم جمالهن وعلمهن وحسن تربيتهن لم يتقدم احد لخطبة اية منهن اليس هذا امرا غريبا ام انني وبناتي الخمسة قد عدنا الى المربع الاول من قصة عمري..!!

المؤلف فى سطور



ابراهيم عبدالحميد
كاتب وصحفي
رئيس مجلس ادارة مؤسسة الصحفيين الليبين
نائب رئيس اتحاد المثقفين العرب رئيس اتحاد المثقفين العرب بدولة ليبيا
رئيس الاتحاد الدولي للصحافة العربية بدولة ليبيا
رئيس مجلس ادارة صحيفة صدى المستقبل
مدير عام قناة المنتدى الفضائية الاقصادية سابقا
مدير عام قناة وطن الكرامة الفضائية سابقا
رئيس تحرير صحيفة الساحة - رئيس تحرير مجلة الاولى

المستشار الثقافى والإعلامى لمؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع بجمهورية مصر العربية
اعد عشرات البرامج المرئية والمسموعة كتب في العديد من الصحف - اجريت معه عديد اللقاءات التلفزيونية - اجرى حوارات صحفية واذاعية مع العديد من الرؤساء العرب والادباء والكتاب مثل دولة ليبيا في المؤتمر العالمي للاعلامين الذين شاركوا في التغطية الاعلامية في مناطق النزاع المسلح وقد حضر المؤتمر مائة اعلامي من ستين دولة عربية واوربية وكان ذلك ببيروت عام 2012
كتب للمسرح وخاصة مسرح الطفل وكتب عديد من المسلسلات الاذاعية - اسس للعديد من الصحف والاذاعات
بدأ نشاطه الصحفي عام 1975
نال شهادات تكريم ومنح شهادة الدكتوره الفخرية من عديد من المؤسسات الابداعية - مشارك في العديد من المنتديات الادبية والثقافية - خريج جامعة القاهرة كلية الحقوق عام 1975

حاز لقب شخصية العام الثقافية لعام 2019 فى المسابقة السنوية برعاية مؤسسة النيل والفرات بمصر

صدر له

العزف على أوتار القلب (دفقات شعورية) ونال به المركز الأول وشخصية العام الثقافية عام 2019 عن مؤسسة النيل والفرات

منمنمات (دفقات شعورية) 2020

لوما (رواية) 2020

ولادة عارضة (رواية) 2020

تحت الطبع

تمتمات (حواريات سوريالية) عن اتحاد المثقفين العرب ومؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع

الفهرس